إحداث تراكم معرفي

على الرغم من أنّ الباحث والأكاديمي التونسي د. رضا الأبيض يعتبر نفسه غير مختص في السوسيولوجيا، ولكنّه كقارئ متابع لما يصدر من دراساتٍ وبحوث في الأدب وفي الشأن الاجتماعيّ والثقافي عامّة، يرى أنّ البحثَ السوسيولوجي ليس معنياً بأنْ يواكب الأحداثَ والتحولاتِ الكبرى زمن وقوعها فحسب؛ بل محمول عليه، بناءً على ادعائه أنّه صار علماً وأنّه يمتلك الأدواتِ اللازمة لتشخيص الواقع، أنْ يتنبّأ بما سيحدث قبل حدوثه، ثم أنْ يواكبه ليعرف مآلاته؛ بل ليؤثر إيجاباً في مساراته من خلال وسائط ووسائل مثل؛ الجامعات والإعلام والنقاشات في الفضاء العام التي تخلق وعياً عامّاً أكاديمياً وشعبيّاً ضاغطاً في اتجاه أنْ تحقق هذه التحولاتُ أحلام العدد الأكبر من الفئات، في الحرية والعدالة.

والحقيقة، وفق الأستاذ المساعد بالمعهد العالي للعلوم الإنسانية بمدنين جامعة قابس- تونس، فإنّ المكتبة العربيّة لم تخلُ من دراسات مهمّة شخّصت واقعَ الثقافة العربية وأزمات النظام السياسي العربيّ وهشاشة قوى المعارضة، وضعف مردودية التعليم، واستشراء الفساد وانسداد أفق الشباب العربي...، إلى غير ذلك من القضايا والتحدياتِ التي شكلت الظروف الموضوعية لأشكالٍ من المواجهة والمعارضة والاحتجاج.

ويشير الأبيض إلى أنّه حين اندلعت حركات الاحتجاج الأخيرة، واتسعت دائرتها فئوياً وجغرافياً، وارتفع سقفُ مطالبها لتتوّج بسقوطِ عدد من الأنظمة في تونس ومصر وليبيا واليمن...، اختلفت وتباينت القراءاتُ والتحليلاتُ الأكاديميّة والشعبيّة، وساد شعورٌ عام في البداية، على الأقل، على أنَّ ما حدث كان عفوياً، وأنّه ثورة، وأنّ محركها الشبابُ، ووسيلتها التقنياتُ الحديثة، وأنّ الشعوبَ من خلال هذه التحولاتِ ستستردُّ حريتها في التعبير والاختيار، وبالتالي ستستعيدُ سيادة قرارها الوطني من خلال البرلمانات المنتخبة ديمقراطياً.

وفي هذا السياق، يطرح الأبيض جملة من التساؤلات منها: هل واكب البحثُ السوسيولوجي هذه التحولات وهل ناقش مثل هذه القضايا؟، وهل تمكن من أنْ يرسم تصوراً واضحاً عن أسباب اندلاع هذه الحركات الاحتجاجية؟ هل هي فعلاً ثوراتٌ؟ ما هو حجم حضور وتأثير العاملِ الخارجي فيها؟ ما هي أبرز التحدّيات التي ستواجه التحول الديمقراطي؟ ما هي طبيعة الأفكار والسلوكات التي تنشأ في مثل هذه الظروف؟ هل الاستبداد شرّ مطلق؟ كيف يقع ترتيبُ الأولويات؟ وما هو موقع الثقافة في هذا الحراك؟ ما هو مستقبل الديمقراطية في ظلّ اقتصادات ضعيفة أو منهارة؟ وما هي حقوق الأقليات وكيف تقع حمايتها؟ وما هي مآلاتُ هذه الحركات الاحتجاجية على المدى القريب والبعيد؟

تلك عينة من أسئلة كثيرة محمولٌ على السوسيولوجيين العرب، وفق الباحث، إثارتها ومناقشتها نقاشاً هادئاً بأدوات منهجية، وبالاستعانة بمنهجيات المقارنة والعمل الميداني...، حتّى تتمّ المساهمة في إحداث

د. رضا الأبيض
(باحث وأكاديمي من تونس)

بعض الدّراسات التي تقدّم نفسَها على أنّها سوسيولوجية تعبّر عن تعصّب سياسوي أو طائفي أو فئوي أو عن مصلحة ما ضيّقة